التأثير المتبادل بين اللغة والمجتمع

محاضرة الدكتور إبراهيم الشمسان

في باكورة نشاطات فرع نادي القصيم الأدبي بمحافظة المذنب ألقى الدكتور إبراهيم بن سليمان الشمسان استاذ النحو والصرف بكلية الآداب بجامعة الملك سعود محاضرة قيمة عن التأثير المتبادل بين اللغة والمجتمع .

حظيت بحضور مكثف استمتع بالطرح الجيد والمضمون الحافل بالمعلومات نستعرض الجزء الأول من هذه المحاضرة.

ما المقصود باللغة العربية ؟

اللغة و سيلة صوتية يستعين بها كل مجتمع علي قضاء أغراضه ،قال ابن جني «أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »، و هي شاملة لكل حاجات المجتمع التواصلية . ولما كانت اللغة رسالة صوتية يصدرها الناطق ليتلقاها السامع فيفهمها لما بينهما من معرفة بدلالات تلك الأصوات وليس يعلم على وجه اليقين الكيفية التي اقترنت بها الأصوات بدلالاتها و هو أمر متعلق بنشأة اللغة الذي أفاض القدماء و المحدثون في الحديث فيه فوصلوا إلى قناعة تامة مفادها أن تلك النشأة من المجهولات و أن البحث فيها لا يوصل إلى اليقين .و لذلك غاب التراث الشفاهي و المبكر للأمم و ضاع تاريخها إلا ما يمكن تلمس آثار منه باستنطاق معثوراتهم على النحو التقريبي ، و يمكن القول إن تاريخ الإنسانية بدأ باختراع الكتابة بأشكالها المختلفة من تصويرية أو مقطعية أو الفبائية ،و لولا الكتابة ما كنا قادرين أن نطلع على تراثنا الشعري و النثري منذ العصر الجاهلي فقد كان تراثا شفاهًيا و لولا تقييده بالتدوين لضاع ، وصار هذا التراث القديم جزءاً من تكويننا المعرفي و مؤثراً على نحو ما بتكويننا النفسي و الاجتماعي فنحن نتمثله و نستعيده و يوجه شيئا من استجاباتنا للأحداث و سلوكنا و فهمنا للحياة ، فالأمثال العربية و الحكم المتضمنة في الأشعار قد تكون حاضرة في الأذهان عند السلوك و التصرف و النقاش و الحجاج و التوجيه و الإرشاد و حين أشرقت الأرض بنور الإسلام و أنزل القرآن نقل العرب نقلة نوعية غيرت مفاهيمهم نحو الحياة و كذلك سنة الرسول الكريم (ﷺ) و سيرته صارت نموذجاً يحتذى و تحولت تعاليمه المستفادة من الأحاديث إلى عادات اجتماعية مرعية كإفشاء السلام و الاستئذان و غض الطرف إماطة الأذى و تشميت العاطس و عيادة المريض و التيمن في الأكل و الملبس و الدخول.

و حين نتحدث عن العربية فنحن نقصد مستواها الفصيح و مستوياتها العامية الأخرى . ونقصد شكلها المسموع و المكتوب. تختلف لغة الخطاب عن لغة الكتاب ،إذا يستعين الخطاب بأنظمة أخرى (ملامح الوجه ، حركة الجسم ، طبيعة الصوت):«اكرب و جهك وارخ ايديك»، فمن الصوت ندرك أكثر مما تنقله الرموز الصوتية و هو فحوى الرسالة ، فمن الصوت يمكن أن نعرف و لوراء ستار أن صاحبه ذكر أو أنثى

، صغير أو كبير صحيح أو عليل ، عاقل أو غير عاقل ، بل قد نحس حالته النفسية من حزن أو فرح و من خوف أو شجاعة ، و من قنوط أو أمل ، من جد أو هزل و لكثرة ما يباري الصوت من أنظمة مساعدة تصوغ الرسالة كانت الرسالة الشفاهية عرضة للإيجاز و حذف عناصر التركيب، و بخلاف هذا الشكل الكتابي للغة الذي يستعين برموز إضافية و مع ذلك يظل معبراً تقريبا عن الرسالة الأصلية، و تنزع الكتابة المرتجلة لأداء رسالة إلي استيفاء ما يقتضيه البيان و أداء حق التبليغ . و لذلك يستعين الكاتب بعلامات الترقيم و ربما بيانات شكلية أخرى كالجداول و الصور و الرسوم. و للغة بشكليها الملفوظ و المكتوب أثره البالغ في أفراد المجتمع، في تكوينهم هم أنفسهم و في تأثيرهم أيضاً في غير هم . و يختلف الناس حسب حظوظهم من المهارات المكتسبة فمن الناس من يكون نطقه بما له من ملكات صوتية أكثر تأثيراً في المتلقي ، ومنهم من يكون كتابه بما له من حسن التخير و عبقرية التأليف و جميل النسيج ما يكون له أثر بالغ لا يناله متحدثا ، لعل من أبرز أمثلة هذا أن أمير الشعراء أحمد شوقي لا يحسن قراءة شعره و لذا يتولى غيره قراءته.

اللغة نتاج اجتماعي :

ارتبطت نشأة اللغة بوجود مجتمع اقتضى شكلاً موفقاً من إشكال التواصل بين أفراده فاللغة من هذا المنطق نتاج اجتماعي و هي بما تتضمنه من مفاهيم و تراث متراكم نتاج اجتماعي ما كان يتصور و جوده من دون هذا المجتمع ، الذي لا يفتأ ينتج اللغة على نحو متواصل ، لأن اللغة في المقام الأول هي و سيلة تواصل أفراد المجتمع .

و لعل من أوضح ما يمكن أن نمثل به الاسم الذي يسمي به الفرد منذ أن يولد إذاً التسمية تلبيه لحاجة اجتماعية فهي التي تعطي لهذا المولود انتماءه إلى المجتمع الإنساني و هي الوسيلة التي تسهل الاتصال به من حيث هو فرد ، التسمية أيضاً تلبيه لحاجات لغوية إذ هي اختصار ألفاظ كثيرة يقتضيها التعبير الشخصي المقصود عند إرادة استحضاره في الذهن و تشخيصه لو لم يكن له علم يعرف به من دون غيره من الناس ، و كان الأصل أن ينفرد كل فرد بعلم يستدعيه و حده و لكن ذلك متعذر التحقق من الناحية العلمية لتكاثر البشر تكاثراً عن تخصيص كل فرد بعلم خاص و لذلك جرى الاشتراك في الأسماء و هو اشتراك اقتضى بعد معالجته بالتخصيص بالوصف المتتابع و هو ما ألف سلسلة النسب المشخصة المسمى.

واللغة وسيلة الإبداع الأدبي الذي هو نتاج اجتماعي متوجه به المجتمع إلى المجتمع بشكله اللغوي الخاص المتصف بسمات لغوية تختلف عن سمات لغة التخاطب التواصلية البلاغية اليومية إذاً ينطلق إلى فضاءات من التعبير اللغوي البلاغي ليصوغ تجارب خاصة أو عامة حقيقة أو متخيلة أو يخلق حيوات أخري تتحقق فيها الآمال ما يعجز الفرد عن تحقيقه فعلاً في حياته الواقعية . و قد يكون الأدب بكيفية ما سجلاً للمجتمع فإن ديوان العرب الذي سجل لنا طائفة من عاداتهم و آمالهم و آلامهم و شيمهم و أخلاقهم فإن الآداب النثرية في مختلف العصور تكشف عن غير قليل من أحوال المجتمع الذي كان الأدب من نتاجه منه بدأ و إليه انتهى.

و يتعلم الطفل اللغة أول ما يتعلمها في مجتمع فهو يسمع و يختزن ما يسمع ليبدأ بعد ذلك بالمحاكاة الصوتية الهينة مما يعينه عليه أدواته النطقية الشفوية ، و هو يلقى عناية من المجتمع ما يجعله يقيم من اعوجاج نطقه و يقيله من عثرات ما اختلط عليه من مفاهيم فهو قد يبدأ بتعميم الأسماء كأن يطلق لفظ (القط) على كل متحرك من الحيوان و لكنه لا يلبث أن يدرك أن لكل حيوان اسماً مختلفاً عن الآخر .فلغة الطفل التي يتعلمها مصدرها المجتمع و تنمو معه بوجوده في هذا المجتمع ،و لذلك يمر الطفل أثناء تعلمه بسلسلة الأخطاء التي يتعلم منها فتتطور لغته و فقا لملكاته ، فقد يلاحظ الطفل

مسألة التعميم و التخصيص بمعنى أن يكون الشئ داخلاً في عموم اللفظ و إن كان له لفظ خاص به و من أمثلة هذا ما و قع لي مع ابن أخي و كنا في الطريق مع والده و أمامنا سيارة فوجه الطفل إلى سؤالاً يختبر معلوماتي : وش هذا؟ و أشار إلى السيارة التي أمامنا ، فقلت متوخياً السهولة و ما توقعته في ذهن الصبي:سيارة .فأجاب دون تردد معلنا فشلي : تكذب قلابي . و أما قوله (قلابي) فصحيح و هو نوع من السيارات يستعمل لنقل الأتربة أو الرمل أو الحجارة و تفريغها بقلب حاوية الحمولة ، ومنه أخذت الاسم أو الصفة التي تحولت إلى إسم ، و أما قوله (تكذب)فهو شاهد على ما أشرت إليه سابقاً من عثرات في المفاهيم فالصبي لما يميز بين ما هو (كذب) و ما هو (خطأ) فهو أراد أخطأت . و قد نجد في اللغة اليوم شيئاً من الخطأ الناتج عن الربط بين لفظ و مفهوم ، مثل قولهم (انصدمت بقدومك الآن)بمعني تفاجأت.

واللغة بما هي نتاج اجتماعي تعبير عن موقف الإنسان من الكون ، فما من أسماء مطلقة على مفردات الكون هي فعل إنساني معبر عن رؤيته ملب لحاجته الاصطلاحية بين أفراد مجتمعه.و كذلك ما توصف به هذه المفردات من صفات ليست لتلك المفردات إلا بقدر ما تعبر عن رؤية الإنسان نفسه . ومن ذلك التعريف و التنكير ،إذ تصنف الأشياء إلى معرفة له عهد بها كأن تكون حاضرة مشاهدة فيكون عهدها حضورياً أو تكون مر لها ذكر في السياق الحديث فيكون تعريفها ذكرياً أو تكون معهودة في الذهن تستدعى صورتها بذكرها ، و أما سوى ذلك مما لا عهد للمخاطب به فمصنف في النكرة ، فهذا إذن أمر متعلق بمقاصد المتكلمين ، فاللفظ الواحد قد يسمعه اثنان فيكون معرفة لأحدهما نكرة لآخر .تقول : هل جاء محمد ؟ فمن يعرف المقصود ؟ بمحمد يكون معرفة بالنسبة له و يجيب بـ(نعم) أو بـ(لا)، ومن ليس به عهد : سيسأل : من محمد ؟

و رأى الإنسان الأشياء حوله متباينة أحجامها فصنفها إلى كبير و صغير و تختلف اللغات في تعبيرها عن ذلك التضاد فالعربية تعمد إلى اسم الشئ فتجري في بنيته من الصوتي مما ينتج كلمة أخرى تعبر عن صفته الصغيرة فيكون اللفظ الجديد متضمنا للاسم و الصفة الصغر ، فحين نصغر (جبل) فنقول (جبيل) بضم أوله و إقحام ياء التصغير فإن المعني (جبل صغير) .و أما اللغة الإنجليزية فالغالب أنها تتوسل بالوصف بالصغر ، فليس لديها لفظ مصرف دال على الصغر ، و في مثالنا يقال (small mountain) أي:جبل صغير . و استغل العربي إمكانية التصغير في غير التعبير عن الصغر الحجمي المحسوس ، فكان مجالاً للتعبير عن صغر المسافة بين الفرد وغيره ، الحسية (قريب) أو المعنوية (صويحب)، وكثر استعماله في تصغير أسماء الناس تعبيراً عن ملامحه المسمى قربه من النفس (عمير)، و ربما شاع استعمال التغير في بعض البيئات في و قت من الأوقات كما هو الحال في و قت مضى في البيئات النجدية إذ يكادون يصغرون كل شئ في كلامهم ، و لعل ما مروا به من عوز و فقر جعل الأشياء عزيزة على النفس غالية كالصغير. ويصغرون للدلالة على حقارة الشئ وضآلته في أعينهم ،تقول : (على أهمية هذا المكان لا يحرسه سوى شريطي). وقد يعبر عن عظم الشئ بتصغير لفظه كأن تقول (كويذب) في التصغير كاذب و أنت تريد كثير الكذب و قد يبدون أن هذا من التناقض في الاستعمال ، و ليس الأمر كذلك إذا المرتد الإبلاغ عن عظم شأنه النفس ، و كأن المراد أن له من الفعل ما لم لا يدرك خطره هو وأثره كفعل الأشياء الصغيرة التي يغفل عنها. و ربما له من دلالة على التحقير في الشجار يقع بين اثنين أو في العقاب اللفظي ، أو التنفيسي عن الغضب من شئ أو شخص.

و لاحظ الإنسان أن الأشياء من حوله منها ما هو واحد و منها ما هو متعدد ، فكان أن عبرت لغته عن إدراكه لهذه

الحقيقة ، و تختلف اللغات في تعبيرها عن الفرادة و التعدد ، فالعربية تميز بين ثلاثة أشياء المفرد و المثني المعبر عن اثنين و الجمع المعبر عن العدد المجاوز لاثنين ، و استفادت العربية من ميزتها الاشتقاقية و التصريفية فجعلت المثنى و الجمع امتدادا للفظ المفرد بإلصاق دوال على التثنية أو الجمع أو إحداث تغيير تصريفي في اللفظ المفرد ليكون منه الجمع المكسر . و بخلاف العربية نجد اللغة الانجليزية تعبر عن المثنى بالصفة إذ ليس لديها آلية لصوغ المثنى على نحو ما نجد في العربية أتى فيها مثني (كتاب) هو (كتابان) أما الانجليزية فمثني (book) هو (Two books) ، أي (كتب اثنان) . و الأمر الذي يهمنا هنا أن اللغة عبرت عن تصنيف الإنسان للأشياء أي مفرد و مثنى و جمع.

و لاحظ الإنسان انقسام عالم الحيوان الذي ينتمي إلى جنسين متمايزين بعض التمايز ، و هو تمايز اقتضته حاجة التكاثر ، و لعله لاحظ هذا في عالم النبات أيضاً ، فكان من شأنه أن عبر بلغته عن هذه الثنائية الجنسية ، فكان لفظ معبر عن الذكر و آخر معبر عن الأنثى ، و لم تقتصر القسم إلى مذكر و مؤنث على الحيوان بل شملت جميع الأشياء في العربية ، فأسماء الجمادات إما مذكرة أو مؤنثة ، و كان الوعي المبكر لهذا الظاهرة قد أحس دلالة على الذكورة أو الأنوثة في الأشياء على نحو ما ، ما زال الناس إلى يومنا هذا يصفون حجراً معينا بأنه ذكر .و تختلف اللغات في تقسيم الأشياء تقسيما جنسياً ففي مقابل القسمة الثنائية في العربية نجد قسمة ثلاثية في اللغة الانجليزية ففيها المذكر و فيها المؤنث و فيها المحايد الذي لا يتصف بذكورة و لا أنوثة . و على الرغم من أن الأصل أن ينفرد الذكر بلفظ يختلف عن لفظ الأنثى و هو ما وردت له شواهد في العربية مثل (حمار و أتان) عدلت العربية عن هذا ، لما يهبه من كثرة يجد المستعمل لها عنتاً ، فاستفادت من آليتها التصريفية فجعلت الفرق بين المذكر و المؤنث علامة تلحق لفظ المذكر الصفات خاصة.

وبتأمل تعبير اللغة عن الأشياء نجد أن الألفاظ دوال على المفاهيم مطابقة لما تشير إليه في الواقع ، هذا هو اللفظ حين يستعمل استعمالاً حقيقياً.و هو الاستعمال الأول للفظ وهو يتبادر إلى الذهن ما لم يرد في السياق ما يصرفه إلى معنى أخر فيكون قد تعدى معناه الذي و ضع له و اجتازه، و لذلك يكون استعماله مجازياً لا حقيقياً ، فحين نسمع كلمة عين يتبادر إلى الذهن الباصرة ،و لكن هذا اللفظ استعير للتعبير عن ما يشابهها بالاستدارة و سيلان الماء منها و هي العين الجارية و استعمال العين للجاسوس مجاز سوغه التركيز عن أهم آلات العمل و هي العين ، فكأن الجاسوس استحال إلى عين كله تمتد من المدفع إلى موضع الرؤية . و الفعل (أكل) ، في إطلاقه ، إحالة إلى تناول الحيوان ما يقيم أوده من الطعام ، و لكن استعماله للدلالة علي الإحراق و الإفناء في (أكلت النار الأوراق) هو من المجاز و الأكل يفني الأوراق . و استطاع صاحب اللغة أن يكون أكثر تأثيراً في التعبير بالمجاز الذي أتاح طاقة تعبيرية هائلة في اللغة ، و خلقاً إبداعياً جمالياً لعوالم أوسع من عالم الحقيقة و أرحب.

حـال اللغة صورة للمجتمع

وهذا متصل بما سبق من ذكر حال العربية الرطانة في خطاب مثقفيها اليوم ، مع ما نالها من ضعف شديد في تعليمها ظهر أثره علي أبنائنا و مثقفينا ، و الغريب أن يتهم بعض الناس العربية بالضعف لأسباب تنطوي عليه أنظمتها، تلك الأنظمة التي و اكبتها منذ وقت مبكر و هي تغزو العالم و تتغلب علي لغاته، و ما كانت الأنظمة عائقا عن تعلمها والإبداع فيها لقد صدق الشافعي في قوله :

نعيب زماننا و العيب فينا

و ما لزماننا عيب سوانا

و يدعو قوم إلى العاميات في التخاطب و التكاتب بدعوى مطابقتها الحياة .و أما الإعلام فتكاد العاميات تستولي عليه استيلاء تاماً ، و من أعجب ما مر بي أن يبعث إلي أحد طلبتي المتخصصين باللغة العربية و هو طالب درس عندي في هذا الفصل مقرر التطبيقات النحوية ، و هو يعلم مدى ضعفه و مثار العجب أنه يكتب بلغة أكثرها العامية . ومن الأمور المؤسفة هذا الشعور الذي نصادفه من استهجان التحدث بالعربية الفصيحة و التندر على معلميها .و ما أظن أحداً يجرؤ على التحدث بالفصيحة في تعاملاته اليومية ، بل الأدهى أن العامية غزت فصول الدراسة ، كما غزت اللغة الأجنبية فصول العلم في جامعاتنا فصارت هي لغة العلم.

و أن أشد ما يحز في النفس و يضيق به الصدر أنك تجد بعض الناس يفاخرون بجهلهم العربية و معرفتهم لغات أجنبية ، و هم لعمري كالغراب الذي أراد مشية الحمامة فلم يدركها فأراد مشيته فإذا هو ضيعها.

ومن أغرب الأشياء توهم أنَّ تحدّث العربية الصحيحة واجب اللغويين و الأدباء دون سواهم بل ربما حصر أمر إتقان العربية بهم رغم ترخص كثير من الأدباء في أمر اللغة فكتبوا الأشعار و سردوا الروايات و لم يكلفوا أنفسهم أمر مراجعتها فجاءت ملطخة باللحن مثقلة بالأخطاء .

و قد هانت اللغة العربية على أهلها ما شهده تاريخها حتى في أحلك الفترات التاريخية التي كانت بلاد العرب تعاني من الاستعمار ورغبته بطمس رموز الهوية ، أما اليوم فأهلها يحملون المعاول لهدم حصونها و قلعها من أماكن تحصنها ،و آية ذلك البينة شمس صيف تنحية العربية عن لغة التعليم و العمل .فتعليم العلوم في جامعاتنا إنما تستولي عليه دون غيرها الانجليزية دون مسوغ مقبول . كما أن اللغة الممسكة بعصب العمل هي اللغة الانجليزية فهي التي تدير حياتنا العملية.

وليس من شك في أن أثر النزعة القطرية و الإقليمية ربما ساهمتا في إضعاف شأن العربية الفصيحة إذ صارت عاميات تلك البلاد هويتها التي إليها الانتماء و بها التميز. حتى لقد سمعت لبنانياً يجادل في إحدى الفضائيات أنه يتحدث اللغة العربية ، كأنما هما لغتان مختلفتان.

فإن كنا نريد لهذا الصدع رأباً لهذه اللغة عزة لأهلها كرامة فإن الأمر منوط بالمجتمعات العربية نفسها ، فقوة العربية مرهون بإرادة هذه المجتمعات العربية .

و ليس أمر قوة العربية شيئاً صعباً أو عزيز المنال أو متعذر التحقق فقد ازدهرت العربية في ظل الإسلام و غزت العالم و صارت قبلته و لغة علمه ، كان الأوربيون يبعثون بأبنائهم ليتعلموا في الأندلس العربية و لكنها و هنت و تراجعت بضعف الممالك الإسلامية و تفرقها و تسلط المستعمرين عليها ثم إن التخلف الحضاري و الأخلاقي أسرعا في ضعف العربية، و هو ضعف العربية ، و هو ضعف شهد بعض القوة أثناء النهضة العربية الداحرة الاستعمار ثم عادت مرة أخرى إلى حال تجمد عقبها لفشل الإدارات المسؤولة عن تعليمها في ظل غياب سياسة تعليمية و واضحة . ومن الغريب أن يؤول حال العربية العظيمة إلى هذا الحال و يرتفع حال لغة كانت فى عداد اللغات الميتة ، إذ أحيا اليهود العبرية لأنهم أرادوا ذلك و عملوا على إحيائها و هم الذين اقتبسوا نحو العربية لنحو لغتهم بل كتبوا نحو العبرية باللغة العربية يوم كانت لغة العلم ، اليوم يدرس اليهود جميع العلوم بالعبرية و نحن عاجزون عن ذلك أليس هذا أقوى دليل على تأثير المجتمع على اللغة ،فهو يحييها إن أراد أو يقتلها إن أراد .ولن تقوم هذه اللغة إلا بإتاحة المجال لها بما يعزز مقامها . و التعليم بها طريق نهضتها . وجعلها لغة العلم كما تجعل كل أمم الأرض لغة العمل فيها لغة البلاد.إن ذلك سيكون خير دافع لتعلمها .و أحسب أن ذلك لا يكون إلا بالعمل الصادق و الأمانة و الاتحاد و تجنب الخلاف ، و ذلك سبيل الإصلاح.